فى التاريخ القديم:

كيف أصبحت روما سيدة ايطاليا؟

بقلم المؤرخ الانكليزى ماندل كريجتون

لم يكن باستطاعة روما طوال فترة الصراع بين الدخلاء والوطنيين ، أن تصبح أمة ماجدة الذكر رفيعة القدر ، ولو أنها ذهبت بعيداً فى جعل نفسها مهوبة الجانب حامية الشوكة داخل حدود البلاد الايطالية . وكما قدمنا فى العدد الماضى ، كانت بسالة الدخلاء فى محاربة أعداء روما سبباً من الأسباب التى جعلت الوطنيين يرضخون لمطالبهم فى النهاية .

وجدير بنا لكى نستطيع أن نستوعب جيداً حروب روما أن نستوعب أولاً طبيعة الأقوام التى كانت تحوطها من جميع الجهات ؛ وأحسب أنك ما تزال تذكر أن فى أسفل نهر الألب كانت تمجد بلاد الغالة ، وعلى امتداد الشاطىء الغربى (شمالى روما) كانت توجد (بلاد الطسقان) ، وعلى الشاطىء الشرقى (جنوبى روما) كان عديد من المدن الزاهرة ، أسسها واستقربها بعض المهاجرين من (الإغريق)، وعلى امتداد ساحل جزيرة (سيشل) كانت توجد مدن إغريقية كبيرة ومثرية ، أما باقى إيطاليا فكان مقام قبائل لاتينية قحة ساذجة ـ منها قبيلة اللاتين التى كانت تحيط بروما ـ تختلف اختلافاً كبيراً عن بعضها البعض فى العادات والأخلاق ؛ وكانت هناك أيضاً بعض قبائل شغوفة بالحروب تسكن وديان (الإبنين) ، فكانت القبائل اللاتينية تخاف بأسها وتخشى سطوتها كثيراً .

حروب الرومان الأولى:

نحن الآن فى عام ٤٩٤م ، وقد عقد المستشار (سبيريوس كاسيوس) بين روما واللاتين تحالفاً انضمت إليه بسرعة قبيلة (الهرنيين) ، وبدأ الحلفاء الثلاثة يسلحون أنفسهم ضد أعدائهم ، وكانت روما غير موفورة القوة بادىء الأمر ، فقد انشغلت حتى سنة ٤٠٥م بمقاتلة قبيلتى (الآلك) و (الفولسكا) اللتين كانتا تقطنان بجوارها . ونحن لا نعرف عن هذه الحروب إلا النزر اليسير ، الذى لا يعدو حكايتين عن هذه الحروب لا بأس من ذكرهما .

حكاية كايوس ماركوس كاريولينوس :

تريك حكاية هذا الرجل كيف أن الصراع الداخلي قد أضعف روما كثيراً، وتريك أيضاً كيف تعلم الرومان إطاعة الآباء ، فقد كان (كايوس) هذا جندياً كبيراً من الوطنيين الذين ترأسوا الجيش الروماني أثناء محاصرته مدينة من إقليم الفولسكا اسمها (كوريوللي) فلما خرج أهل (فولسكا) لمقاتلة الرومان كان القتال في صف العدو فتقهقر ، فأغرت الهزيمة (كايوس ماركوس) على أن يتبعهم بمفرده إلى كوريوللي ذاتها، فلم يشعر إلا وقد غلقت عليه أبواب المدينة وهو وحيد بين الأعداء، وكان المنتظر أن يسقط في يده فيستسلم للقضاء، ولكنه كان شجاعاً إلى حد أنه دفع الفولسكيين كلهم من لدن الأبواب وفتحها بيديه على مصراعيها للجيش الروماني الذي كان قد أدركه ، وعلى ذلك سقطت (كوريوللي) في أيدي الرومان، وأعطي لقب (رجل كريولينوس) مكافأة له على شجاعته الفائقة وإقدامه النادر.

عود إلى الوطنيين والدخلاء :

حدثت بعد ذلك في روما مجاعة كبيرة وسادها قحط شديد، فلما جاءتها نجدة الحبوب من (سيشل) أراد مجلس النواب أن يبيعها (الدخلاء) الفقراء بثمن يطيقونه ؛ ولكن (كايوس ماركوس بطل القصة السابقة قال : «دعوهم بلا حبوب حتى يخضعوا لكلام الوطنيين » ، فلما سمع الدخلاء ذلك ثاروا وغضبوا وقدموه للمحاكمة أمام (الوكيلير) ، وأدرك (كايوس) أن إدانته ستثبت لا محالة، فهرب لاجئاً إلى ملك (فولسكا) وعرض عليه أن ينخرط في خدمته ضد الرومان، فأعطاه ملك فولسكا جيشاً كبيراً سار به قاصداً (روما)، ووصل ذلك إلى علم الرومان فتوجسوا خيفة وأرسلوا إليه في طلب الصلح: أرسلوا إليه بادئ الأمر كبار رجالات مجلس النواب، لكنه رفض أن يصغي إليهم، ثم أرسلوا إليه القساوسة ومعهم صور مختلف الآلهة ؛ فلم يصغ إليهم أيضاً ، وهنا أسقط في أيدي الرومان، ويئسوا من الوصول إلى سبيل للنجاة من هذا المأزق، وأخيراً قال واحد منهم : «ربما جاز أن يقبل ضراعة أمه وزوجه»، وصادف هذا الرأي قبولاً ، فذهبت إليه أمه وزوجه وأطفاله وعديد من كبيرات المقائل في ثياب الحداد، فلما رأى أمه أسرع لمقابلتها، ولكنها قالت له: «لا تقبلني حتى أعرف ما إذا كنت عدواً أم ابناً»، فارتبك ولم يحر جواباً، وأزاء ذلك خرت أمه وزوجه وأطفاله على ركبهن وصرن يتوسلن إليه أن ينقذ روما، فبكى وقال لأمه: «أمي.. إن هذا انتصار كبير لك ولروما، ولكنه خراب كبير وعار عريض لولدك»، ثم تركها وبدأ يعود بجيشه من حيث جاء، وبذا نجت روما ؛ ولم يلبث إلا قليلاً بعد ذلك حتى توفي بين (الفولسكيين) .

حكاية (لوسيوس كوينكتيوس سينسينيتوس):

وهى حكاية أخرى كان يتناقلها الرومان عن حرب لهم مع (الآكويين) ، ومنها نستطيع أن نرى كم كانت عاداتهم بسيطة،وكيف أن جميع المواطنين كانوا يخدمون الولاية تاركين أشغالهم الخاصة إذا اقتضى الأمر : كان المستشار (ميثيوسيوس) يحارب (الآكويين) حتى سدوا عليه المسالك على شفا جرف واد ضيق رأسى الانحدار ، وقفوا على (فم) حتى لا يمكنه الخروج منه ، وجاءت الأخبار إلى روما بهذا ، فقال أحد أعضاء المجلس أخيراً: « ليس هناك إلا رجل واحد هو الذى يستطيع إنقاذ الموقف،هو (لوسيوس كوينكتيوس)،فلنجعله ديكتاتوراً حتى تضع الحرب أوزارها.فكانت موافقة من الجميع ،فأرسلوا إليه رسلاً وجدوه يحرث ـ بغير عباءته ـ مزرعته التى يعيش عليها ، فلما أن رآهم نادى على زوجته لتحضر له عباءته ، حتى يظهر احترامه للرسل.فلما أخبروه بأن المجلس انتخبه ديكتاتوراً ترك المحراث فى الحال وجاء معهم إلى روما حيث أمر كل من يستطيع حمل السلاح أن يستعد وينتظم فى سلك الجيش ، على أن يحضر معه ما يكفيه من المئونة واثنى عشرة عصاً ؛ وإذ تم له ذلك سار بجيشه حتى شارف الآكويين ليلاً ،وأمر جنده فأصدروا صيحة عالية أفرحت المستشار ورجاله ، إذ علموا أن النجدة قد جاءت ، ثم حاصر الآكويين وأمر رجاله أن يحفروا خندقاً حولهم ، وأن يجعلوا من عصيهم التى جاءوا بها كومة عالية على حد الخندق ؛ وفعل الرومان كل ذلك ليلا، فلما أصبح الآكويون وجدوا أنهم أصبحوا محاصرين بعد إذ كانوا حاصرين ، فأسقط فى أيديهم وسلموا الدكتاتور،ونجا المستشار وجنده ،وعاد لوسيوس إلى روما منتصراً ،ولكنه ترك ديكتاتوريته فى الحال وعاد إلى مزرعته .

وكثيرون هم أمثال (لوسيوس كوينكتيوس) ممن كانوا يتركون مزارعهم ليصبحوا ديكتاتورين إذا دعت إليهم حاجة الولاية،فإذا قضيت الحاجة عادوا إلى مزارعهم ومحاريثهم. وهو هذا الصنف الذى أكسب روما المعارك ، وهو الذى خلق لروما عظمتها .

روما والطسقانيون :

تعبت روما من تلك الحروب مع (الفولسكا) و (الآك)،ولكنها لم تكن فى الحق حروباً كبيرة،وكان مايزال عليها رغم تعبها أن تراقب أعداءها الأقدمين من الطسقانيين،ولعلك ما تزال تذكر أن مدينة روما إنما أنشئت لتستطيع بحسب أن تمنع اعتداء الطسقان على اللاتين، الذين كانوا أقواماً عظيمة،عاشت فى المدن وبنت المبانى الكبيرة وصنعت كثيراً من الأشياء الجميلة وتاجرت كثيراً وبنجاح ،وكانت لهم سفن تجارية وحربية ، وكانوا فى الأيام الأولى هم والقرطاجانيون

سادة البحر الأبيض المتوسط ؛ إلا أن الأغارقة من سيشل وإيطاليا ، رغبوا فى أن يتاجروا أيضاً بهذه المياه، فحاربوا الطسقانيين والقرطاجانيين،وهزموا الطسقانيين فى معركة بحرية كبيرة عام ٤٧٤ق . م . وفى نفس الوقت هاجم الغاليون الطسقان من الشمال ، فارتبك الطسقان وبدأت قوتهم تنقلب ضعفاً، فلما رأى الرومان منهم ذلك هاجموهم من الجنوب وبدءوا عام ٤٥٠ق م حصار أقرب مدينة طسقانية إليهم وهى مدينة (فيى)،واستمر الحصار عشر سنوات وأخيراً سقطت فى يد القائد الرومانى الكبير (ماركوس فيوريوس كاميلليوس)مع عدة مدن طسقانية ضمت إلى روما حتى وصلت الحدود الرومانية سهول (الكامينيا).وقد عرف عن هذا القائد أنه كان رجلاً شريفاً فى القتال ، فقد حدث مرة وهو يحاصر(فاليرى)أن جاء إلى معسكره مدرس فى المدينة ومعه صبية،هم أبناء أكبر مواطنى تلك المدينة ؛ جاء به هؤلاء الصبية على أنهم إذا صاروا فى قبضة يده فإن أهليهم يرغمون على التسليم له ؛ ولكن كاميلليوس غضب غضبة شديدة من هذا المدرس الخائن الدنىء ، وشد يديه إلى ظهره ثم أسلمه للصبية وأمرهم أن يعودوا إلى المدينة ويقصوا على أهليهم قصة هذا المدرس اللعين ؛ فلما عرف آباؤهم هذا ، ظنوا فى الرومان أحسن الظن،وهان عليهم أن يسلموا لقائدهم باختيارهم ومن تلقاء أنفسهم .

الغاليون يهزمون الرومان

ولكن ما أسرع ما لحقت بالرومان هزيمة منكرة ؛ ذلك أن (الغاليين) كانوا هم الآخرين يهاجمون (الطسقانيين) من الشمال، بينما كان الرومان يهاجمونها من الجنوب ،فلما رأى الرومان ذلك حاولوا أن يسارعوا إلى عليهم الطسقانيين، وشعر الغاليون بذلك فساروا إلى الرومان وهزموهم هزيمة بالغة على نهر(الأليا) سنة ٣٩٠ق م،وتقدموا إلى روما ذاتها .

الغاليون يأخذون روما :

فقد الرومان فى المعركة كثيراً من رجالهم حتى إنه لم يبق لديهم أى أمل فى حماية روما ذاتها.فلما رأى الرومان من الأهالى ذلك هربوا كلهم إلا نزر يسير أمن أشجع الجنود ، أغلقوا الكابتول عليهم - وكان الكابتول هذا أحصن قلعة بروما - عازمين على ألا يسقط الكابتول مابقى فيهم نفس يتردد؛ وبقى فيه أيضاً قليل من الوطنيين الكهول الذين صمموا على ألا يغادروا فى كبرهم مدينة عاشوا فيها طوال حياتهم،فألبسوا أنفسهم أحسن ماعندهم من ثياب وجلسوا صموتاً على المقاعد فى مجلس النواب .فلما اندفع الغاليون إلى المدينة ولم يجدوا بها أحداً إلا هؤلاء الأشياخ الذين جلسوا صموتاً ،دهشوا لذلك وحاروا، من يحاربون؟ وماذا يفعلون؟ والمدينة خالية إلا من هؤلاء الأشياخ؛ وأخيراً بدأ أحد هؤلاء الغاليين يعبث بشعرات ذقن قسيس يدعى (ماركس بابيرس)فغضب القسيس لهذا الاعتداء وضرب العابث بصولجانه العاجى الذى كان ممسكاً به فى يده ، وكان هذا

كافياً لأن يندفع الغاليون على الأشياخ فيقتلوهم ويشعلوا النار فى المدينة . وحاول الغاليون بعد ذلك أن يأخذوا الكابتول ، ولكنهم لم يصلوا إلى أية طريق يصعدون منها له . لأن الصخرة التى أقيم عليها كانت رأسية الانحدار ؛ وكشفوا لها أخيراً عن طريق ، وفى ذات ليلة تسلقت عصابة منهم تصعدها فى منتهى الصمت لئلا يشعر بهم أحد من الرومان . وكان فى الكابتول بعض الأوزات ، منذرة إلى الإله (جونو) ، فلما كاد الصاعدون يصلون إلى القمة ، بدأت الأوزات (تصيح) فاستيقظ رومانى شجاع هو (ماركوس مانليوس) فى الوقت الذى كان فيه طليعة الغال على وشك الانتهاء من تسلق الصخرة ، فلما رآه دفعه إلى أسفل بدرعه فسقط إلى الأرض فوق كثير من الذين كانوا ينتظرونه ، ثم استيقظ الرومان كلهم على الضجة الحادثة ، وكان لهم من الوقت ما أعانهم على طرد الغاليين كلهم ، وبذا أنقذ الكابتول ؛ فلما رأى الغاليون أن سقوط الكابتول مستحيل عادوا إلى بلادهم ، مكتفين بما حملوا معهم من الغنائم والأسلاب .

آثار حرق روما:

وهو غزو روما وحرقها هذا ، الذى جعلنا لا نعرف عنها من الأخبار الصحيحة فى تاريخها القديم إلا النزر اليسير ؛ فقد كان القسس فى تلك الأيام يكتبون مذكرات بكل ما يحدث عاماً بعد عام ويحتفظون بها فى المعابد والهياكل ، وقد أحرق الغاليون المعابد فلا بد أن تكون كل هذه المذكرات أحرقت معها ، وكذلك السجلات الرسمية . ونحن فى الحق لا نستطيع أن نجزم قطعاً بأى خبر قبل هذا التاريخ ، ولكنا نستطيع الفصل فى صحة الأخبار بعد ذلك ، لأن الأشياء بدأت مصادرها تتأكد وتتعدد ، كما بدأنا نعرف كثيراً من الأشياء التى كان يسلها الرومان معرفة حقيقية لا شك فيها .

ماركوس مانليوس والوطنيون

وعاد الرومان بعد جلاء الغال ليجدوا مدينتهم خربة ، فيتحدثوا بإذىء الأمر فى تركها والذهاب للإقامة فى مدينة (فى) ، ولكن (كاميليوس) يغريهم على أن يبقوا بها ويبنوا مدينة جديدة بدلاً منها . وكان هذا عبئاً ثقيلا ألقى على عاتق الدخلاء الفقراء ، وواجباً عانوا من جرائه شقاء كثيراً ، واستدانة فاحشة ، حتى لقد حدث ذات يوم أن اقتيد إلى السجن جندى شجاع لعجزه عن دفع دينه ، وسمع بذلك ماركوس مانليوس الوطنى الذى أنقذ الكابتول فحزن لذلك ولم يسعه إلا أن يدفع الدين نيابة عنه وبذلك أنقذه ؛ وآلى مانليوس على نفسه ألا يترك دخيلا يلقى إلى غيابة السجن فى نظير دينه مادام فيه نفس يتردد وما دام عنده ولو القليل من المال ، فأحبه الدخلاء من أجل عاطفته النبيلة هذه ، وتخوف منه الوطنيون كثيراً ، فاتهموه

بأنه يحاول أن يعيد الملكية وحكموا عليه بالإعدام سنة ٣٨٣ ق م ، ومن هنا تعلم الدخلاء أن ينظروا إلى وجود القوانين التي تحميهم ، لا إلى وجود الرجال الذين يحمونهم .

نتائج مجيء الغال:

ولم يكن غزو الغال لروما بلاء حقيقياً كبيراً ، حقاً لقد عانوا منه كثيراً ، ولكن ليس بالقدر الذي عاناه (الآكويون) أعداؤهم الأقدمون ، والذين - منذ غزو الغال لهم - لم يعاكسوا الرومان مرة أخرى ، فضلا عن أن الرومان قد تعلموا كذلك أن يحسنوا جيوشهم ، وأن يكونوا أكثر حذراً في المعارك ، وكان من عادة الغاليين أن يخرجوا من بلادهم على امتداد نهر (البو) عاماً بعد عام ، ليعتدوا على البلاد التي يمرون بها ويعيثوا فيها مفسدين وغانمين أسلاباً . ولكن الرومان تعلموا من هزيمتهم الأولى ، فما عادوا يخرجون لمقابلتهم في سرعة وطيش واندفاع ، بل كانوا يرجعونهم قليلاً قليلاً حتى خاف الغاليون أن تنتهي بهم القهقرى إلى داخل بلادهم ، وبعد عام (٣٥٠ ق . م) لا نسمع بغزواتهم لروما ، وصارت القبائل تنظر (إلى روما) بعد إذ ازدادت قوتها وقويت شوكتها بحروبها معهم ، على أنها حاميتهم .

بداءة الحروب السمنية :

سحق الغاليون - إلى جانب الآكويين - كثيراً من القبائل الإغريقية التي كانت تسكن المدن الواقعة جنوبي روما في الإقليم المسمى إقليم (كامبانيا) ، وكانت هذه المدن غاية في الضعف ، وفي نفس الوقت غاية في الثراء ، حتى إنه عند ما جلا عنها الغاليون ، هاجمتها قبيلة لاتينية تسمى (قبيلة السمنية) ، كانت تعيش في جبال الإبينين وسط إيطاليا ، وأتلفت تلفاً هائلا مدينة (كابيوا) ، فأرسلت الأخيرة إلى روما في طلب النجدة سنة ٣٤٣ ق م ، وأنجدتها روما فبدأت الحروب السمنية التي دامت أكثر من خمسين عاماً ، أي إلى عام ٢٢٠ ق م ، وهي نتيجتها التي كانت ستقرر ما إذا كان سيقدر لروما أن تحكم إيطاليا كلها أم لا .

كان (السمنيون) أضخم أعداء روما وأشجعهم ، وما لبثت الحرب السمنية الأولى أن انتهت دون أن يكون لها نتائج خطيرة ، وكان كل من الطرفين راغباً في عقد تحالف ، وخاصة روما التي كانت في ذلك الوقت قد بدأت تخاف عداوة أحلافها (اللاتين) .

حرب اللاتين :

والآن بعد إذ رحل الغاليون عن اللاتين ، لم يرد اللاتين أن يظلوا تابعين للرومان

فأرسلوا إلى الرومان سنة ٣٤٠ق.م يطلبون منهم مساواتهم بهم، ولم يعترضوا على بقاء روما عاصمة الحلف ، إلا أن مجلس النواب يجب أن يضاعف عدده ويجب أن يكون هناك مستشاران من اللاتين كما يوجد مستشاران من الرومان . ولكن لم يوافق الرومان على هذه المطالب، فنشأت حرب اللاتين الكبيرة لتقرر أى المتحاربين هو الذى سيحكم الآخر ؛ ودامت هذه الحروب ثلاث سنوات (٣٤٠ — ٣٣٨) وكانت شديدة جداً وقاسية للغاية . وكانت كبرى معارك الحرب عند سفح جبل (موات فيزيوس) ؛ وكان النصر فيها مشكوكاً فيه لمدة طويلة، ولكن المستشار الرومانى (ديسيس مس) ألهم أن الجانب الذى سيفوز هو الذى يقدم قائده نفسه للموت، ومن ثم فقد غطى رأسه بعباءته واندفع بين صفوف الأعداء فقتل، وفعلاً بدأ الرومان ينتصرون قليلاً قليلاً .

قسوة مانليوس :

وربما كان فى مكنتك أن تقدر كم كان الرومان قساة أصلاباً ، إذا سمعت تلك الحكاية التى حكيت عن المستشار الآخر تيسيوس مانليوس، فقد أصدر أمراً بأنه لايجوز لأى إنسان أن يتحارب فردياً مع أى عدو له ، فحدث ذات يوم أن ابنه شخصياً تحداه أحد الأعداء فتعارك معه وقتله ، وأتى بجثته معه، فلما سمع بذلك والده أمر به أن يشنق لعصيانه ووقف بنفسه يرقب تنفيذ الحكم ؛ ومع أن هذا الحكم قد أرعب الناس كلهم فإنهم اعتقدوا أن مانليوس كان عادلاً إلى الحد الأقصى .

كيف حكمت روما اللاتين ؟

وإذن فقد غزت روما اللاتين وأخذت كل مدائنهم . وقد عرفت كيف تخضعهم ، فأعطتهم امتيازات مختلفة، وعلمتهم كيف ينظرون إلى روما، وإليها فقط، وكيف يعنون بها أكثر مما يعنى أحدهم بالآخر. كما أنها فى نفس الوقت لم تنظر إليهم كأجانب عنها فقد كانوا حلفاءها ، بل لقد تعاركوا حلفاء جنباً إلى جنب واستعملوا نفس الأسلحة ، وكانوا فى السلم إخواناً ، فلما تمردوا أخضعتهم ولم تعاملهم بخشونة، وإنما عملت فقط على ألا يقوموا فى وجهها مرة أخرى ، وحسنت تجارتهم على حساب ذلك ، فلم تسمح لمدينة بالمتاجرة المباشرة مع أخرى ، وإنما جعلتها كلها تتاجر مع روما ، ومن هنا أصبحت روما عاصمتهم التجارية إلى جانب كونها العاصمة السياسية والحربية. ومنتهم كثيراً أن يصيروا مواطنين رومانيين، إذا أبقوا على ولائهم لها، فبدوا يشعرون أنهم غزوا ، وصاروا يفتخرون بأن روما تحكمهم .

وهكذا تعلمت روما كيف تربط بها البلاد التى تغزوها ، حتى إنها قلما فكرت فى الوقوف

فى وجهها ، ويجب أن نذكر أن روما كانت بعد ذلك فى غزوها الخارجى تفعل نفس ما فعلت مع اللاتين، وبذا جعلت إيالاتها كلها تطمع فى أن يكون أهلها مواطنين رومان، فيكون ذلك لهم خير جزاء على إخلاصهم لها.

الحرب السمنية الثانية :

ولقد كان من حظ روما أن صفت حسابها مع اللاتين وجعلتهم حلفاءها اختياراً، فقد بدأت عام ٣٢٧ ق م الحرب السمنية الثانية التى دامت إلى عام ٣٠٥ ق م ، أى مدة خمس وعشرين سنة، وقاتل فيها كل من الفريقين بشدة ، لأنهما كانا يعلمان أن المنتصر منهما هو الذى سيحكم إيطاليا ، وكان للسمنيين قائد شجاع اسمه (كايوس پونتيوس) استطاع مرة أن يهزم الجيش الرومانى بحيلة غريبة ؛ فقد جعل جيشه يتظاهر بأنه هرب فتبعه الجيش الرومانى من أقصر طريق ليجد أنه قد حوصر وأغلق عليه الوادى وحاصله السمنيون من جميع الجهات وهو ليس بمستطيع مخرجاً ! فلم يسعهم إلا أن يعترفوا بالهزيمة للسمنيين الذين عقدوا معهم صلحاً وأطلقوا سراحهم؛ ولكن هذا الصلح لم يقره البرلمان فى روما، وكان اعتراضه أن الصلح القانونى هو الذى يصدر عن مجلس النواب فقط ، وأرسلت الولاية المستشارين اللذين عقدا الصلح كأسيرين إلى (پونتيوس) ،فرد پونتيوس بقوله إنه كان فى استطاعته أن يسحق الجيش الرومانى بأسره لو أراد، ومن هنا كان يرغم المجلس على عقد الصلح ، فإذا كان المجلس لا يرضى بالصلح فليرسل الجيش ثانية إلى عمر (كوديوم) بسلاحه كما كان، وتستمر الحرب، ولكن الرومان أبوا ذلك قائلين إنهم أرسلوا إليه القائدين اللذين ارتكبا الخطأ، وإن هذا هو كل ما يستطيعون عمله؛ فأعاد پونتيوس القائدين واستمرت الحرب من جديد ؛ ولم يكن رأى المجلس صائباً هذه المرة، ولكنهم كانوا قوماً يعتقدون أن الواجب يقتضيهم أن ينفذوا القانون بحروفه .

فلما استمرت الحرب تخوف الطسقانيون من قوة روما، وعملوا على شلها فساعدوا السمنيين، ولكنهم هزموا أيضاً، وأخيراً فى عام ٣٠٤ ق م اضطر السمنيون إلى إلقاء السلاح وعقد الصلح.

الحرب السمنية الثالثة :

ولكن هذا الصلح لم يستمر طويلاً ، فقد بدأت الحرب السمنية الثالثة عام ٣٠٠ ق . م . وفيها نرى كل الأقوام من إيطاليا التى كانت حتى ذلك الوقت يقاتل بعضها بعضاً، قد اتحدت ضد روما التى أصبحت قوتها تخيف الجميع فرادى ومجتمعين، فكانت هذه الحرب صراعاً يائساً من السمنيين والطسقانيين والغاليين، للحد من سلطان روما وعتوها. وكانت كبرى المعارك سنة ٢٩٥ فى مدينة (سلتينيتم)، وفيها انتصر الرومان عليهم جميعاً . وبعد ذلك بعامين أسر الرومان قائد

السمنيين الشجاع (كايوس بونتيوس) ولم يعاملوه بأية شفقة بل قتلوه ؛ ولقد أظهر الرومان أنفسهم دائماً عظهر القاسى ضد من يثور فى وجههم ، وكانت فعلاً هذه القسوة سبباً آخر من الأسباب التى جعلت الأمم التى تغزوها روما لا تثور ضدها غالباً .

الحرب مع المدن الاغريقية :

والآن وقد قررت الحرب السمنية الثالثة أن روما هى سيدة إيطاليا الجنوبية بعد إذ أخضعت السمنيين والطسقانيين وقهرت الغاليين ، لم يبق أمامها إلا المدن الاغريقية لتسود روما كلها .

كانت هذه المدائن فى زمن ما قوية جداً وكانت ما تزال غنية جداً ، كانت غنية إلى حد أنها لم تكن تعنى بالحرب والدفاع عن نفسها ، بل تؤجر غيرها على القيام بذلك نيابة عنها ، وكانت من أهم هذه المدن مدينة (تارنتم) على خليج تارنتم الكبير فى جنوب إيطاليا ، وكان الرومان يساعدون بعض المدن التى تجاور تارنتم ضد أعدائها ، وكان أهل تارنتم يحسدون روما على قوتها ، فلما عرفت روما ذلك أرادت أن تؤدبهم ؛ ففى ذات ليلة بينما كان القوم كلهم جالسين فى (المسرح) على شاطىء البحر فى الهواء الطلق حيث المقاعد تشرف على الماء ، ليشاهدوا إحدى الروايات التمثيلية التى كان الاغريق بها جد مغرمين ، إذ رأوا فجأة عشر سفن رومانية لصق الميناء ، فاندفعوا فى عنف وهياج إلى السفن الرومانية وهاجموها وحطموها ؛ وابتدأت الحرب عام ٢٨٢ ق م .

الحرب مع فيرهس :

ولكن التارنتيين كانوا يخافون الحرب بأنفسهم ؛ ولم يكن فى إيطاليا كلها من القبائل الأخرى من تصلح لأن تقف أمام روما ، فلم يجدوا بداً من أن يتجهوا إلى بلاد الاغريق ويطلبوا مساعدة (فيرهس) ملك (ابيرس) التى كانت على الشاطىء الغربى من إغريقيا ، وهى أقرب جزء إلى إيطاليا . وسر (فيرهس) إذ تيحت له الفرصة لتحقيق أمانيه ؛ فقد كان على صغر سنه يطمع فى أن يكون غازياً كبيراً . وكان حقاً قائداً جيداً فأحضر معه جيشاً من الجنود المدربين ، وقصد إلى إيطاليا . وكان شيئاً خطيراً بالنسبة للرومان أن يقفوا ويتقاتلوا مع أناس يعيشون خارج إيطاليا ، لأنهم كانوا مضطرين إلى الحرب بطريقة دفاعهم الخاصة التى لم يجربوها إلا مع أهل إيطاليا .

نزل فيرهس إلى الأرض الإيطالية عام ٢٨٠ ق م فى جيش كبير ، فتصدى له الرومان ، فهزموا عند (هيراكلس) على نهر سيريس الصغير ؛ لأن قسم الراكبين فى جيشهم لم يكن جيداً مثل (سوارى الاغريق) ، وفزعت خيلهم كثيراً عند مارأت فيلة جاءبها الاغريق معهم ؛ ولكن على الرغم من أن فيرهس كسب المعركة فإنه خسر كثيراً من جنوده حتى لقد قال : قليل من مثل هذه الانتصارات ثم أهزم ! ! وذهب بعد ذلك إلى روما وحاول أن يسعى فى الصلح بشروط جيدة ؛ له

ولتارنتم، فأرسل إليهم رجلاً لبقاً جداً اسمه (سينيز) كان دائماً يفيرمن وجهة نظر المجلس الاغريقي، وكان له عليه تأثير كبير، ولكن نيبلاً رومانيا - كان مستشاراً ومراقباً وتقاعد وقد تقدمت به السن - أمر بنفسه أن ينقل إلى مجلس النواب الروماني، حيث توسل إلى المجلس ألا يسمح بصلح ما دام فيرهس لا يزال موجوداً في إيطاليا. وأخذ المجلس برأيه وعاد (سينيز) بهذا الرأي إلى فيرهس، فلما سمعه قال: «من العبث المقاتلة مع روما لأن مجلس نوابها هو مجلس ملوك لا مجلس نواب!!»، وفي العام التالي هزم فيرهس الرومان مرة أخرى، ولكنهم لم يسلموا له، فيئس فيرهس وجلا عن ايطاليا إلى سيشل وقاتل هناك عامين، ثم عاد إلى إيطاليا، وكان جيشه أضعف بكثير مما كان عليه، وكان الرومان قد لاحظوا ضعف «راكبيهم» فدربوهم وسلحوهم جيداً، كما عودوا أنفسهم على المقاتلة ضد الفيلة، حتى صاروا يستطيعون الوقوف في وجه فيرهس وقفة الند، وفي سنة ٢٧٥ ق.م نشبت بين الجيشين معركة غلب الرومان فيها فيرهس، فرجع إلى ابيرس وقد فقد جنوده تقريباً، وانتهت بذلك آماله في الفتح والغزو بعد هذا الاندحار الشنيع، وبعد ذلك بثلاث سنوات قتل في إغريقيا بحجر ألقته امرأة على رأسه حينما كان يحاصر أرجوس.

حكم روما لايطاليا:

بعد جلاء فيرهس لم تجد روما أية صعوبة في أخذ كل جنوب إيطاليا. والآن فهاهي ذي روما تحكم كل الأراضي الواقعة جنوب خط يرسم من النهر الصغير (ماكرا) الواقع على الساحل الغربي إلى (الرابيكون) على الساحل الشرقي، وفوق هذا الخط كانت بلاد الغال، وكانت روما ذاتها مدينة، فحكمت نفسها وحكمت كل المدن الإيطالية، لأن إيطاليا كانت مقسمة إلى أقاليم يتبع كل إقليم منها مدينة، وصارت الحال في إيطاليا هكذا: كان المواطنون الرومان يحكمون كل الباقين، وصار كل من غير المواطنين يجب أن يكون مواطناً رومانياً، وبعد الرومانيين يجيء (اللاتين) الذين كان لهم بعض حقوق المواطنين الرومان، وكانوا يأملون في الحصول على بقية امتيازات الرومان بمرور الزمن، وبعد اللاتين يجيء الايطاليون الذين كانوا يحكمون مدنهم التي يعيشون فيها، ولكن كان عليهم أن يطيعوا روما وأن يخدموا الجيش الروماني عندما كان يحتاج إليهم.

وكانت هناك طريقتان بواسطتهما احتفظت روما بسلطتها على إيطاليا، ويجب أن نذكر دائماً هاتين الطريقتين فقد كانتا دائماً الوسيلتين اللتين استعملتهما بعد ذلك في كل مستعمراتها. وهما

١ — إنشاء المستعمرات الرومانية.

٢ — إنشاء الطرق.

المستعمرات الرومانية

المستعمرات كما تعرف هي أراض من بلد يستوطنها أناس من بلد آخر، ليعيشوا فيها باستمرار كأنها جزء من وطنهم. فكان الرومان يأخذون جزءاً من الأراضي التي يغزونها ويرسلون إليها مواطنين رومانيين ليعيشوا فيها ويكونوا هناك ولاية رومانية لأنفسهم. ومن هنا فإن عدداً من (رومات) صغيرة قد انتشر في أنحاء إيطاليا، وكانت روما تستطيع على الدوام أن تعتمد على مواطنيها في المستعمرات، لأن الروماني الوطني لم يكن ينسى روما مطلقاً، وكانت هذه المستعمرات حاميات تحفظ السلم بين الايطاليين، ولكنها أحسن من الحاميات العسكرية لأنها كانت حاميات من رجال سلميين يشتغلون يومهم في مزارعهم ويعلمون الآخرين أن يحذوا حذوهم، ومن هنا أحب الايطاليون الرومانيين وحاولوا أن يكونوا مثلهم، وكانوا راضين بأن تحكمهم روما.

الطرق الرومانية:

كان الرومان صناع طرق ماهرين، إذ كانوا ينشئونها بالجودة والمتانة التي تنشأ بها الطرق في الوقت الحالي وبنفس الطريقة أيضاً، وكانت هذه الطرق تتفرع من روما إلى سائر أنحاء إيطاليا، ومن هنا كان في استطاعة روما أن ترسل الجند إلى أي مكان يحتاج إليهم، ويمكنها بسهولة أن تتلقى الأخبار عن مستعمراتها، فكانت هذه الطرق وسيلة جميلة لحفظ النظام، وقد يستطيع القارىء أن يتصور ايطاليا في ذلك الوقت، ويذكر أن هذه الطرق كانت منتشرة، ليعرف أنها كانت عبارة عن سلاسل تقيد المدن بروما.

أخلاق الرومان القدماء:

هكذا كانت روما تحكم إيطاليا. وكانت أيام حربها مع السمنيين وفيرهس مأزق أيامها، لأنه كان ما يزال على الرومان أن يشتغلوا بجد ليغتنوا، وكانوا أمناء وشجعان ونبلاء، وهناك كثير من القصص التي تحكي لنا كيف كان الرومان القدماء يحيون، فلم يكن قوادهم وسياسيوهم أعظم ولا أفخم في مجرى حياتهم من الناس الآخرين، واعتادوا حينما كانت ترسل الهدايا إليهم أن يرفضوها. حدث مرة أن أرسل السمنيون إلى القائد الروماني (مانليوس سيريوس) هدية من الذهب، فلما حضر الرسل وجدوه في مزرعته يطبخ لنفسه طعام غدائه الذي لم يكن يزيد على لفتة تشوى في النار، ولم يكن لديه إلا طبق من الخشب يأكلها فيه! فلما قدموا له الهدية الذهبية رفض (سيريوس) أن يأخذها قائلاً: «ليس الشرف في حيازة الذهب إنما هو في سيادة من يحوزونه».

ولكن ما أسرع ما يأتي الزمن الذي يثري فيه الرومان من الحروب الخارجية، وما أسرع ما تنتهي تلك الحياة الساذجة البسيطة التي كانوا يحيونها مما ستراه في الجزء القادم.